الباب الثانى عشر

العمل والثروة فى أثينة

الفصل الأول

الأرض والطعام

كان الأساس الذى يقوم عليه صرح هذه الدمقراطية وهذه الثقافة هو إنتاج الطعام والثروة وتوزيعهما بين الناس . ذلك أن من يقومون من الناس بحكم الدول ، والبحث عن الحقيقة ، وتأليف الألحان الموسيقية ، ونحت التماثيل ، وإبداع الصور ، وتأليف الكتب ، وتعليم الأطفال ، وخدمة الآلهة ، إنما يستطيعون هذا لأن غيرهم يكدحون لإنتاج الطعام ، ونسج الثياب ، وبناء المساكن ، واستخراج المعادن ، وصنع الأدوات النافعة ، ونقل البضائع ، واستبدال غيرها بها ، أو تقديم الأموال اللازمة لإنتاجها أو نقلها . هذا هو أساس الدمقراطية والثقافة فى كل مكان .

وعماد المجتمع هو الفلاح أفقر الناس فيه وألزمهم له . ولقد كان الفلاح فى أتكا يستمتع على الأقل بحقوقه السياسية ؛ ذلك أن المواطنين وحدهم هم الذين كانوا يحق لهم أن يمتلكوا الأرض وكان الفلاحون جميعهم تقريباً يمتلكون الأرض التى يفلحونها ؛ وكان نظام امتلاك العشيرة كلها للأرض قد اختفى ، واستقر نظام الملكية الفردية وتوطدت أركانه . وكانت هذه الطبقة من صغار الملاك فى أتكا ، كما هى الآن فى فرنسا وأمريكا ، قوة محافظة تعمل على الاستقرار

فى الدمقراطية ، على حين أن سكان المدن الذين لا ملك لهم كانوا يدفعون الدولة على الدوام نحو الإصلاح والتغيير . وكانت نار الحرب القديمة العهد بين الريف والمدينة — بين الذين يريدون أثماناً عالية للغلات الزراعية وأثماناً منخفضة للسلع المصنوعة ، وبين الذين يطلبون أثماناً منخفضة للسلع المصنوعة وأجورا عالية أو أرباحاً كبيرة فى مجال الصناعة — كانت نار هذه الحرب شديدة الاستعار فى أتكا بنوع خاص . وبينا كانت الصناعة والتجارة تعدان من أعمال العامة التى تزرى بصاحبها فى نظر المواطن الأثينى ، كانت الأعمال الزراعية فى اعتقاده مشرفة للمشتغل بها لأنها أساس الاقتصاد القومى ، والخلق الشخصى القويم وقوة البلاد الحربية ؛ وكان أهل الريف ينزعون إلى احتقار سكان المدن ويرون أنهم إما طفيليون مستضعفون أو عبيد أدنياء[١] .

وتربة أتكا غير خصبية : فثلث مساحتها البالغ قدرها ٦٣٠٫٠٠٠ فدان إنجليزى غير صالح للزراعة ، والثلثان الباقيان قد أفقر تربتهما تقطيع الغابات ، وانحباس الأمطار ، وسرعة اكتساح فيضانات الشتاء للطبقة الخصبة السطحية . ولم يكن الفلاحون فى أتكا يدخرون جهداً — يبذلونه هم أو أرقاؤهم — للتغلب على هذا الحظ النكد ، فكانوا يدخرون ما زاد من الماء على حاجتهم فى خزانات ويقيمون الجسور حول المجارى المائية للسيطرة على فيضانها ، ويجففون المستنقعات ويستصلحون أرضها الطيبة ، ويحفرون الآلاف من قنوات الرى لتحمل إلى حقولهم الظمآى قطرات الماء من النهيرات ، ولا يملون من نقل النبات من بيئة إلى بيئة ليحسنوا نوعه ويزيدوا حجمه ، ويتركون الأرض بورا مرة كل سنتين لتستعيد قدرتها على الإنتاج ، ويجعلون التربة قلوية بإضافة بعض الأملاح إليها مثل كربونات الجير ، ويسمدونها بنترات البوتاسيوم ، والرماد ، وفضلات الآدميين[٢] . وكانت الحدائق والغياض المحيطة بأثينة تستفيد أكبر الفائدة من مجارى المدينة التى كانت

تصب كلها فى مجرى كبير متصل بخزان عام خارج ديبلون Dipylon ، ثم ينتقل ماؤها من هذا الخزان فى قناة مبنية بالآجر إلى وادى نهر سفسوس Cephisus[٣] . وكانوا يخلطون أنواعاً مختلفة من التربة بعضها ببعض ليفيد كل نوع منها من الآخر ، وكانوا يحرثون الأرض وبعض الخضر البقولية مزهرة فيها لكى تتغذى منها التربة ؛ وكانت الأعمال المتصلة بحرث الأرض وتمهيدها ، وبذر البذور أو غرس النبات ، تجرى كلها فى فترة الخريف القصيرة ، وكان موسم جنى الحبوب يحل فى شهر مايو ، وأما فصل الصيف الجاف فكان موسم الاستعداد والراحة . ومع هذه العناية كلها فإن أرض أتكا لم تكن تنتج إلا ٦٥٧٫٠٠٠ بشل من الحبوب فى كل عام لاتكاد تكفى ربع سكانها ؛ ولولا الطعام المستورد من الخارج لهلكت أثينة پركليز جوعاً ؛ وكان هذا هو الذى دفعها إلى الاستعمار وأوجب عليها أن تنشئ لها أسطولا قوياً تسيطر به على البحار .

وحاول الريف أن يستعيض عن محصوله الضئيل من الحبوب بمحصول موفور من الزيتون والعنب . فدُرِّجت جوانب التلال وأجريت لها المياه ، وكانت الحُمُر تشجع على قرض أغصان الكروم بأنيابها لتزيد بذلك ثمارها[٤] . وكانت أشجار الزيتون تغطى كثيرا من الأراضى فى بلاد اليونان فى أيام پركليز ، ولكن الفضل فى نقل أشجار الزيتون إلى هذه البلاد يعود إلى پيسستراتس وصولون . ذلك أن شجرة الزيتون لاتؤتى أكلها إلا بعد ستة عشر عاماً من زرعها ، ولا يكتمل نموها إلا بعد أربعين ؛ ولولا ما أمد به پيسستراتس الزراع من إعانات لما نمت تلك الشجرة فى أرض أتكا . ولقد كان إتلاف بساتين الزيتون فى حرب البلوپونيز من الأسباب التى أدت إلى اضمحلال أثينة . والزيتون ذو فوائد كثيرة لليونانى ، فعصرته الأولى تمده بالزيت يأكله ، والثانية تمـده بالزيت يدهن به ، والثالثة تعطيه زيتاً يضىء به بيته ؛ وما بقى منه بعدئذ يتخذ وقودا[٥] . وكان الزيتون

أثمن غلات أتكا فى عصر پركليز ، وقد بلغ من عظم شأنه أن احتكرت الدولة تصديره ، وأن ابتاعت به وبالنبيذ ما كانت تضطر إلى استيراده من الحبوب .

وكانت تحرم تصدير التين تحريما باتا ، لأن التين من أهم مصادر القوة والنشاط لأهل البلاد . وشجرة التين تنمو وتترعرع حتى فى التربة الجدباء ، وجذورها الكثيرة الانتشار تمتص كل ما عساه أن يوجد فى التربة من ماء ، وأوراقها القليلة الصغيرة لا تعرضها للبخر الكثير . وفضلا عن هذا فإن زارع شجر التين قد تعلم من بلاد الشرق سر إنضاج ثماره بالتلقيح ؛ فكان يعلق أغصان شجرة التين البرية الذكر ، بين أغصان الشجرة الأنثى المنزرعة ، ويترك للحشرات نقل الطلع من الذكر إلى ثمار الأنثى فتزيد فى الحجم والحلاوة .

وكانت هذه الغلات الزراعية من الحبوب ، وزيت الزيتون ، والتين ، والعنب ، والنبيذ ، أهم المواد الغذائية فى أتكا . ولم تكن تربية الماشية موردا للطعام خليقا بالذكر ؛ وكانت الخيول تربى لتستخدم فى السباق ، والأغنام لتؤخذ منها الأصواف ، والمعز للبن ، والحمير ، والبغال ، والبقر ، والثيران للنقل ؛ أما الخنازير فكانت تربى بكثرة ليؤكل لحمها ؛ وكانوا يعنون بتربية النحل للانتفاع بعسله فى عالم خلو من السكر . وكان اللحم من مواد الترف ، لا يطعمه الفقراء إلا فى أيام الأعياد ، وقد اختفت العهد الذى نتحدث عنه مآدب الأبطال التى كانت تقام فى العصر الهومرى. أما السمك فكان طعاما عاديا ومتعة فى آن واحد ؛ كان الفقير يبتاعه مملحا ومجففا ، والغنى يستمتع بلحم « القرش » « وثعبان البحر » طازجا[٦] . وكانت الحبوب تطعم سليقة ، وخبزا ، وكعكا ، وكثيرا ما كانت تخلط بعسل النحل . وقلما كان الخبز والكعك يسويان فى المنزل ؛ بل كان كلاهما يشترى من بائعات جائلات أو من حوانيت صغيرة ، وكانوا يضيفون إليهما البيض ، والخضر — وخاصة الفاصوليا ، والبسلة ، والكرنب ، والعدس .

والخس ، والبصل ، والثوم . وكانت الفاكهة قليلة ؛ ولم يكن البرتقال والليمون من الفاكهة المعروفة . وكان النُّقل من الأصناف المعروفة والتوابل كثيرة الانتشار ، وكان الملح يجمع من ملاحات البحر ويشترى به العبيد من داخل البلاد ؛ وكانوا يصفون العبد الرخيص بأنه « مملح » والعبد الطيب بأنه « جدير بملحه » . وكان كل شيء تقريبا يطهى ويجهز بتار زيت الزيتون وهو بديل ممتاز للبترول . وإذا كان من الصعب الاحتفاظ بالزبد طويلا فى بلاد البحر الأبيض المتوسط فإن زيت الزيتون كان يستخدم بدلا منه . وكان يتفكه بعد الأكل بالعسل ، والحلوى والجبن . وبلغ من حبهم للكعك المحشو بالجبن أن دبجوا كثيرا من الوسائل القيمة فى وصف هذا الفن الخفى[٧] . وكان الماء شرابهم العادى ، ولكن ما من دار كانت تخلو من النبيذ ، لأنه ما من مدينة أطاقت الحياة من غير المخدرات أو المنبهات . وكانوا يحتفظون فى الأرض بالثلج والجليد الطبيعيين ليبردوا بهما النبيذ فى أشهر القيظ[٨] ؛ وكانوا يعرفون الجعة فى عصر بركليز ولكنهم كانوا يحتقرونها . واليونانى بوجه عام مقتصد فى طعامه يقتنع بوجبتين فى اليوم ، ويقول أبقراط : « ومع هذا فثمة كثيرون يستطيعون أن يطيقوا ثلاث وجبات كاملة فى اليوم إذا تعودوا هذا[٩] » .

الفصل الثانى

الصـــناعة

كانت أرض أتكا تنتج المعادن والوقود كما تنتج الطعام ، وكان الأهلون يضيئون بيوتهم بمصابيح جميلة المنظر ، ومشاعل يستخدمون فيها زيت الزيتون المكرر أو الراتينج — أو بالشموع . وكانوا يدفّئون بالخشب الجاف أو الفحم الخشبى ، يحرقونه فى مواقد متنقلة . وقد عريت الغابات والتلال القريبة من المدن لكثرة ما قطع من أشجارها للوقود والبناء ، حتى أضحت البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد تستورد الخشب الذى تحتاجه لبناء البيوت والسفن وصنع الأثاث . أما الفحم الحجرى فلم يكن له وجود .

ولم يكن الغرض من التعدين فى بلاد اليونان الحصـــول على الوقود ، بل كان غرضه استخراج المعادن ، وكانت أرض أتكا غنية بالرخام ، والحديد ، والخارصين ، والفضة ، والرصاص . وكانت مناجم لوريوم القريبة من الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة « فوارة تندفع منها الفضة ، لأثينة » كما يقول إسكلس . وكانت هـــذه المناجم أكبر ما تعتمد عليه الحكومة ، فكانت تحتفظ لنفسها بملكية كل ما تحت التربة ، وتؤجر المناجم إلى من يستغلها من الأفراد نظير أجر محدد قدره وزنة (تالنت أى ٦٠٠٠ ريال أمريكى) وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من غلتها فى العام[١١] . ولما اكتشفت أولى العروق المربحة فى لوريوم عام ٤٨٣ هرع الناس إلى إقليم المناجم لاستخراج الفضة . ولم يكن يسمح لغير المواطنين بأن يستأجروا تلك المناجم ، ولم يكن يقوم بالعمل فيها سوى العبيد . وكان نيشياس Nicias التقى ، الذى ساعد بخرافاته على خراب أثينة ، يكسب ما يعادل

مائة وسبعين ريالا أمريكياً فى اليوم الواحد بتأجير ألف عبد إلى مستغلى المناجم بما لا يزيد على أبولة واحدة (١٧/١٠٠ من الريال الأمريكى) لكل منهم فى اليوم ؛ وما أكثر الثروات التى جمعها الأثينيون بهـذه الطريقة ، أو بإقراض الأموال اللازمة لهذا الاستغلال . وكان عدد العبيد فى المنجم يبلغ أحياناً عشرين ألفاً ، وكان منهم المشرفون عليهم والمهندسون . وكانوا يعملون فى نوبات تطول كل منها إلى عشر ساعات ، ولم يكن العمل ينقطع ليلا أو نهاراً ؛ فإذا ما تباطأ العبد أو استراح ألهب المشرف عليه ظهره بالسوط ، وإن حاول الهرب صفد بأغلال من حديد ، وإذا هرب وألقى القبض عليه كويت جبهته بالحديد المحمى(١٢) . ولم يكن عرض المنجم يزيد على قدمين ، ولم يكن ارتفاعه يتجاوز ثلاث أقدام ، وكان العبيد يعملون فيه بالمنقب أو الإزميل والمطرقة ، وهم جاثون على ركبهم ، أو منبطحون على بطونهم ، أو مستلقون على ظهورهم(١٣) . وكانت الخامات بعد تكسيرها تنقل فى سلال أو أكياس يتناولها رجل من رجل ؛ لأن الممرات لشدة ضيقها لا تسمح لاثنين أن يمر أحدهما بالآخر بسهولة . وكانت الأرباح التى تجنى من هذه المناجم غاية فى الضخامة . وحسبنا دليلا على هذا أن إتاوة الحكومة منها بلغت فى عام ٤٨٣ مائة وزنة (نحو ٦٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) — وهى ثروة رزقتها أثينة من حيث لاتحتسب واستطاعت أن تنشئ بها أسطولا تنقذ به بلاد اليونان كلها عند سلاميس . ولقد عاد هذا العمل بالخير والشر معاً حتى على غير العبيد ؛ فقد أصبحت خزانة أثينة بسببه تعتمد كل الاعتماد على المناجم ؛ فلما أن استولى الإسپارطيون على لوريوم فى حرب البلوپونيز ، اضطربت أحوال أثينة الاقتصادية من أولها إلى آخرها ، ولما نضب معين المناجم فى القرن الرابع كان نضوبها أحد العوامل الكثيرة فى اضمحلال أثينة ، وذلك لأن أرض أتكا ليس فيها معدن ثمين غير الفضة .

وصناعة التعدين تتقدم بتقدم استخراجها . فكانت الخامات المستخرجة من مناجم لوريوم تدق فى مهارس ضخمة بمدقات ثقيلة من الحديد يحركها العبيد ، ثم تنقل بعدئذ إلى مطاحن تطحنها بين حجرين دوارين شديدى الصلابة ، ثم تغربل ويؤخذ ما ينزل من ثقوب الغربال إلى حيث يغسل ، فيوضع على مناضد مائلة مستطيلة الشكل مصنوعة من الحجر ومغطاة بطبقة رفيعة ملساء من الأسمنت الصلب ويسلط عليه شؤبوب ماء من حوض . ويندفع تيار الماء ثم ينثنى بزوايا حادة عندها فجوات تلتقط جزيئات المعدن . ثم يؤخذ ما يتجمع منه فيها ويلقى فى أفران للصهر مجهزة بمنافيخ ترفع حرارتها . وفى قاع كل فرن فتحات ينزل منها المعدن المصهور . ويفصل الرصاص من الفضة برفع حرارة المعدن المصهور فوق بواتق مصنوعة من مادة مسامية وتعريضه بعد ذاك للهواء . وبهذه الطريقة السهلة يتحول الرصاص إلى أكسيد الرصاص وتخلص الفضة . وقد برع العمال فى عمليتى الصهر والتنقية ، كما تشهد بذلك العملة الفضية الأثينية ، فإن فضتها نقية إلى درجة ٩٨ فى المائة . ولقد أدت لوريوم ثمن ما أنتجته من الثروة ، لأن صناعة التعدين تجلب فى أعقابها أضراراً تذهب بكثير من أرباحها . فالنبات يموت والناس يهلكون بتأثير الدخان المنبعث من الأفران ، والأماكن المجاورة للمصانع تصبح قفراء جدباء يغطيها التراب والرماد(١٤) .

أما غير هذه الصناعة فلا يكلف من الجهد ما تكلفه ؛ وفى أتكا الآن كثير من هذه الصناعات غير المجهدة ، وهى وإن كانت صغيرة فى حجمها دقيقة شديدة التخصص فى نوعها ، فقد كانت تستخرج الرخام وغيره من الحجارة من محاجرها ، وتصنع آلافاً من أشكال الآنية الخزفية ، وكانت تدبغ الجلود فى مدابغ كبيرة كالتى يمتلكها كليون منافس بركليز وأتيتس الذى وجه التهمة إلى سقراط . وكان من أهلها فوق ذلك صانعو العربات ، وبناءو السفن وصانعو السروج وسائر عدد الخيل ،

والحذاءون ، وكان من صانعى السروج من لا يصنعون إلا الأعنة ومن الحذائين من اختصوا بصنع أحذية الرجال أو النساء[١٥] . وكان من المشتغلين بحرف البناء نجارون وصانعون للقوالب ، وقاطعون للأحجار ، ومشتغلون بالمعادن ، ومصورون ، وطالون للجدران والأخشاب . وكان فيها حدادون وصانعون للأسياف والدروع ، والمصابيح ، والقيثارات ، والطحانون ، والخبازون ، والوزامون ، والسماكون — وجملة القول أنها كانت تحتوى على كل ما تطلبه الحياة الاقتصادية الكثيرة العمل المتنوعة الأشكال ، غير الآلية أو المملة . وكانت المنسوجات العادية لا تزال حتى ذلك الوقت تنسج فى المنازل ، ففيها كان النساء ينسجن ، ويصلحن ثياب الأسرة وفراشها ، ومنهن من يمشطن الصوف أو يدرن عجلة الغزل ، ومنهن من يتعهدن الأنوال ومن ينحنين أمام إطار التطريز . أما المنسوجات الخاصة فكانت تشترى من المصانع أو تستورد من خارج البلاد — فالأقمشة التيلية الرقيقة كانت ترد من مصر ، وأمرجوس Amorgos ، وتارنتم ؛ والأقمشة الصوفية المصبوغة من سراقوصة ، والبطاطين ، من كورنثة ، والطنافس من الشرق الأدنى وقرطاجنة ، وأغطية الفراش الملونة من قبرص ؛ وتعلمت نساء كوس فى أواخر القرن الرابع حل شرانق دود القز وغزل خيوط الحرير[٦] . وأتقنت النساء فى بعض المنازل فنون النسيج إتقاناً أمكنهن أن ينتجن أكثر من حاجة أسرهن ، فكن يبعن ما زاد على حاجتهن إلى المستهلكين فى بادئ الأمر ، ثم إلى الوسطاء ؛ وكن يستعن بمن يساعدهن من المعاتيق أو الأرقاء ، ونشأت على هذا النحو صناعة منزلية كانت هى الخطوة الأولى فى سبيل نظام المصانع .

بدأ هذا النظام يتشكل فى عصر پركليز ، وكان پركليز نفسه ، كما كان ألسبيديز ، يمتلك مصنعا[١٧] ، ولم تكن هناك آلات ، ولكن كان فى الاستطاعة الحصول على كثير من العبيد ؛ وكان رخص القوة العضلية سبباً فى انعدام الحافز

إلى صنع الآلات ؛ ولهذا كانت دور الصناعة فى أثينة « حوانيت صناعة » لا مصانع ، ولم يكن فى أكبرها ، وهو حانوت صنع الدروع الذى يمتلكه سفالوس Cephalus ، سوى مائة وعشرين عاملا ، وكان فى دار صنع الأحذية التى يمتلكها تمركوس Timarchus عشرة عمال ، وفى مصنع دمستين للأساس عشرون ؛ وفى مصنعه للعدد الحربية ثلاثون[١٨] . ولم تكن هذه الحوانيت فى بادئ الأمر تنتج إلا لمن يطلب الإنتاج ، ثم صارت فيما بعد تنتج للسوق ، ثم للتصدير فى آخر الأمر ؛ وكان حلول النقود محل المقايضة ، وانتشار هذه النقود انتشاراً واسعاً ، مما يسر عليها أعمالها . ولم تكن فى البلاد منظمات صناعية ، بل كان كل مصنع وحدة مستقلة بذاتها يمتلكها رجل أو رجلان ، وكان صاحبه يعمل فى كثير من الأحيان إلى جانب عبيده . ولم تكن لديهم علامات تجارية ، وكانت الحرف يأخذها الأبناء من الآباء ، أو يتعلمها الصبيان عن الرؤساء ؛ وكان القانون يعفى الأثينيين من رعاية آبائهم فى شيخوختهم إذا لم يعلمهم أولئك الآباء حرفة يشتغلون بها[١٩] . وكانت ساعات العمل كثيرة ، ولكنهم كانوا يعملون على مهل ، فكان صاحب المصنع وعماله يعملون من مطلع الفجر إلى ما بعد غروب الشمس ، مع إغفاءة قصيرة فى وقت الظهيرة صيفاً . ولم تكن هناك إجازات ولكنهم كانت لهم فى كل عام ستون عيداً ينقطعون فيها عن العمل .

الفصل الثالث

التجارة والمـــال

إذا أنتج الفرد ، أو الأسرة ، أو المدينة أكثر من حاجته أو حاجتها ، نشأت التجارة : وكانت أولى الصعاب التى واجهت أتكا أن وسائل النقل فيها كثيرة النفقة غير متيسرة ، وأن البحر شراك ليس من السهل على سفنها أن تفلت منه . وكانت أحسن طرقها البرية هى الطريق المقدسة الممتدة من أثينة إلى إليوسيس ؛ وإن لم تكن أكثر من طين ، وإن كانت أضيق من أن تتسع لمرور المركبات . أما القناطر فلم تكن أكثر من معابر غير مأمونة مقامة من حواجز من الطين كثيراً ما تجرفها الفيضانات . وكان حيوان الجر المألوف هو الثور وهو حيوان أوتى من الفلسفة أكثر مما يسمح له بأن يغنى التاجر الذى يعتمد عليه فى نقل متاجره . وكانت العربات هشة تتحطم على الدوام أو تتعطل عن السير فى الوحل وكان أفضل منها لديه أن ينقل بضاعته على ظهور البغال ، لأنها أسرع من العربات قليلا ، ولأنها لا تشغل ما تشغله تلك العربات من الطريق . ولم يكن فى بلاد اليونان نظام للبريد ؛ وحتى الحكومات نفسها لم يكن لها مثل هذا النظام ، بل كانت تقنع بالعدائين ؛ وكانت الرسائل الخاصة تنتظر إلى أن يتاح لها من ينقلها منهم . وكانت الأخبار الهامة ترســـل بالإشارات النارية يتلقفها تل من تل أو بالحمام الزاجل[٢٠] . وكانت فى أماكن متفرقة من الطرق نزل ، ولكنها كانت مآوى محببة للصوص والحشرات ؛ وحتى الإله ديونيسس فى إحدى مسرحيات أرسطوفان يسأل هرقل عن « بيوت الأكل ودور الضيافة التى هى أقل من غيرها بقا[٢١] » .

وكان النقل البحرى أقل كلفة من النقل البرى وبخاصة إذا اقتصر على أشهر الصيف الساكنة الريح ، وكان هذا النقل فى العادة مقصوراً على تلك الشهور . وكانت أجور السفر قليلة ، فكان فى وسع الأسرة أن تنتقل من بيريه إلى مصر وإلى البحر الأسود نظير درخمتين (أى ريالين أمريكيين[٢٢]) ، ولكن السفن لم تكن تعنى بنقل المسافرين لأنها صنعت قبل كل شىء لنقل البضائع أو لشن الحرب أو لهذا الغرض أو ذاك كما تقضى الضرورة . وكانت أهم القوى المحركة هى قوة الريح تملأ الشراع ، ولكن العبيد كانوا يسيرون السفن بالمجاديف إذا سكنت الريح أو هبت فى عكس اتجاه السفن . وكانت أصغر سفن البحار التجارية يسيرها ثلاثون مجدافاً ، ومنها ما كان له خمسون . وأنزل أهل كورنثة فى البحر منذ عام ٧٠٠ قبل الميلاد أول السفن ذات الثلاثة الصفوف من المجاديف يعمل بها مائتان من الرجال . وقبل أن يستهل القرن الخامس كانت هذه السفن بمقدمها الطويل السامق قد بلغ وزنها ٢٥٦ طناً ، وبلغت حمولتها سبعة آلاف بشل من الحبوب ، وأصبحت حديث جميع القاطنين على شواطئ البحر الأبيض المتوسط لأن سرعتها بلغت ثمانية أميال فى الساعة[٢٣] .

وكانت ثانى مشاكل التجارة هى العثور على واسطة للتبادل يثق الناس بها ، فقد كان لكل مدينة نظامها الخاص فى الموازين والمقاييس ، وعملتها التى لا تشاركها فيها مدينة أخرى . وكان على الإنسان عندما يصل إلى أحد التخوم التى تكاد تبلغ المائة عداً أن يبدل نقوده وأن يكون على حذر فى هذا التبديل لأن كل حكومة يونانية ، عدا حكومة أثينة ، كانت تسلب الأجانب عنها أموالهم بتخفيض قيمة نقدها[٢٤] . وفى ذلك يقول يونانى لم يشأ أن يُعرف اسمُه « كان التجار فى معظم المدن يضطرون أن ينقلوا على سفنهم بضائع وهم عائدون إلى مدنهم لأنهم لم يكن فى وسعهم أن يحصلوا على نقود ذات نفع

لهم فى أى مكان آخر[٢٥] » . وكانت بعض المدن تسك نقوداً من خليط من الذهب والفضة ، وينافس بعضها بعضاً فى إنقاص ما فى هذا الخليط من الذهب . أما الحكومة الأثينية منذ أيام صولون فقد أخذت على نفسها تشجيع التجارة إلى أقصى حد بإيجاد عملة موثوق بها طبعت عليها بومة أثينة ؛ وكان قولهم : « يأخذ البوم إلى أثينة » هو المثل اليونانى المقابل لقول الإنجليز « يحمل الفحم إلى(*) نيوكاسل[٢٦] » وإذا كانت أثينة قد أبت خلال صروف الدهر أن تخفيض من قيمة درخماتها الفضية ، فقد كانت سائر بلاد البحر الأبيض المتوسط تقبل وهى راضية هذه « البومات » التى أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل العملة المحلية فى جزائر بحر إيجه ، وكان الذهب فى هذه المرحلة لا يزال سلعة تجارية تباع بالوزن ، ولم يكن وسيلة يستعان بها على الاتجار ؛ ولم تكن أثينة تسكه عملة إلا فى حالات الضرورة النادرة ، وكانت النسبة المعتادة بينه وبين الفضة كنسبة ١٤ إلى ١[٢٧] . وكانت أصغر النقود الأثينية تسك من النحاس ، وكانت ثمان قطع منها تكون أبولة — وهى عملة من الحديد أو البرنز سميت بهذا الاسم لمشابهتها للأظافر أو للسفود . وكانت ست أبولات تكون الدرخمة أى الحفنة ؛ والدرخمتان تكونان استاتر Statar والمائة درخمة تكون مينا Mina ، وستون مينا تكون وزنة Talent . وكانت الدرخمة فى النصف الأول من القرن الخامس يبتاع بها بشل Bushel من الحبوب كما يبتاع الريال الأمريكى فى القرن(**) العشرين[٢٨] . ولم يكن فى أثينة عملة ورقية ، ولا صكوك حكومية ، ولا شركات محاصة ، ولا مصفق للأسهم والسندات .

(*) والمقابل للمثل العربى القائل « كبائع التمر إلى هجر » . (المترجم)

(**) احتسبنا الأبولة فى هذا المجلد مساوية فى قوتها الشرائية لسبعة عشر جزءا من مائة جزء من ريال الولايات المتحدة فى عام ١٩٣٨ ، واحتسبنا قيمة الدرخمة ريالا وقيمة الوزنة ٦٠٠٠ ريال . وذلك كله تقريبى بطبيعة الحال لأن الأثمان كانت مطردة الارتفاع طوال التاريخ اليونانى . انظر الفصل الخامس من هذا الباب .

لكن أثينة كان فيها مصارف مالية لاقت صعاباً شديدة فى توطيد دعائمها لأن الذين لم تكن بهم حاجة إلى القروض يندون بالربا ويرونه جريمة(*) ، ويتفق معهم الفلاسفة فى هذا الحكم . وكان الأثينى العادى فى القرن الخامس ممن يكنزون المال ، فكان إذا ادخر شيئاً منه آثر أن يخبئه بدل أن يودعه فى المصارف . وكان بعض الناس يقرضون مدخراتهم نظير فائدة تتراوح بين ١٦ ، ١٨ فى المائة ، ومنهم من يقرضونها من غير وهون بفائدة إلى أصدقائهم ، أو يودعونها فى خزائن الهياكل . وكانت الهياكل تعمل عمل المصارف فتقرض المال إلى الأفراد والحكومات بفائدة معتدلة ، وكان هيكل أبلو فى دلفى إلى حد ما مصرفاً دولياً لجميع بلاد اليونان . ولم تكن الحكومات تقترض من الأفراد ، ولكن الدول كانت فى بعض الأحيان يقرض بعضها بعضاً . وفى القرن الخامس بدأ مبدل النقود الجالس أمام منضدته (طربيزته Trapeza) يقبل المال وديعة لديه ، ويقرضه للتجار بفوائد يتراوح سعرها بين ١٢ ، و ٣٠ فى المائة حسب ما تتعرض له من الأخطار . وبهذه الطريقة أصبح ذلك الصراف مصرفياً ، وإن كان قد احتفظ إلى آخر تاريخ اليونان باسمه الأول (صاحب المنضدة trapezite) . وقد أخذ أساليبه عن بلاد الشرق الأدنى ، وحسنها ، ونقلها إلى رومة فأسلمتها هذه إلى أوربا الحديثة . وما كادت الحرب الفارسية تضع أوزارها حتى أودع ثمستكليز سبعين وزنة (٤٢٠،٠٠٠ ريال أمريكى) عند فيلوستفانوس المصرفى ، بنفس الطريقة التى يعمل بها المغامرون السياسيون لدنياهم فى هذه الأيام ، وهذه أول إشارة معروفة للأعمال المصرفية خارج المعابد فى

(*) ليس الفلاسفة والذين لا يحتاجون إلى القروض هم وحدهم الذين يعدون الربا جريمة ، بل إن كثيرين من علماء الاقتصاد فى هذه الأيام يرون فيه أضرارا كثيرة تزيد على منافعه وهم يؤيدون برأيهم هذا ما جاءت به الأديان السماوية . (المترجم)

تاريخ اليونان . ولما آذن هـذا القرن بالانتهاء أنشأ أنتسثنيز Antisthenes وأرخستراتس المؤسسة التى أصبحت فى عهد باسيون Pasion أشهر المصارف اليونانية التى يملكها الأفراد ، وعن طريق هؤلاء الصيارفة كانت الأموال تتداول بحرية وسرعة أكثر من تداولها قبل وجود هذا النظام ، وكانت لهذا تيسر من الأعمـال أكثر مما كانت تيسره قبل وجودهم . وبفضل هذا التيسير راجت التجارة الأثينية واتسعت أسواقها ونشطت أكثر من ذى قبل .

وكانت التجارة ، لا الصناعة ولا الأعمال المالية ، روح الاقتصاد الأثينى . ذلك أنه وإن ظل الكثيرون من المنتجين حتى ذلك الوقت يبيعون منتجاتهم إلى المستهلك مباشرة ، فإن عدداً متزايداً منهم كان فى حاجة إلى وساطة السوق التى كانت وظيفتها شراء السلع وخزنها حتى يستعد المستهلك لشرائها . وبهذه الطريقة نشأت طبقة من بائعى التجزئة يعرضون بضائعهم فى شوارع المدن ، أو فى مؤخرة الجيوش ، أو فى الأعياد والاحتفالات العامة ، أو يعرضونها للبيع فى حوانيت أو « أكشاك » فى الأماكن المزدحمة أو غير المزدحمة فى المدن . وكان الأحرار والغرباء والأرقاء يذهبون إلى هذه الأماكن ليساوموا التجار ويبتاعوا ما تحتاجه البيوت . وكان من أقسى القيود المفروضة على النساء والحرائر ، فى أثينة أن العادات لم تكن تبيح لهن أن يخرجن إلى الأسواق ليشترين منها حاجتهن .

وتقدمت التجارة الخارجية لبلاد اليونان أسرع من تقـدم التجارة الداخلية نفسها ، لأن الدول اليونانية أدركت مزايا توزيع العمل بين بعضها والبعض الآخر فتخصصت كل منها فى إنتاج نوع من المنتجات . فصانع الدروع مثلا لم يعد ينتقل من مدينة إلى مدينة تلبية لطلب من يحتاجه ، بل أخذ يصنع دروعه فى حانوته ويبعث بها إلى أسواق العالم القديم . وهكذا انتقلت أثينة فى قرن واحد من الاقتصاد المنزلى — الذى يصنع فيه كل منزل

جميع ما يحتاجه تقريباً — إلى الاقتصاد الحضرى — الذى تصنع فيه كل مدينة جميع ما تحتاجه تقريباً — ثم إلى الاقتصاد الدولى — الذى تعتمد فيه كل دولة على ما تستورده من غيرها ، والذى لا بد لها فيه أن تصدر من السلع ما تؤدى به أثمان وارداتها . واستطاع الأسطول الأثينى مدى جيلين من الزمان أن يجعل البحر مطهراً من القراصنة ، ولهذا ازدهرت التجارة من عام ٤٨٠ إلى ٤٣٠ كما لم تزدهر فى المستقبل إلا بعد أن قضى بمبى على القرصنة فى عام ٦٧ . وكانت أرصفة پيرية ، ومخازنها ، وأسواقها ومصارفها تقدم للتجارة كل ما تستطيعه من أسباب التيسير ؛ وسرعان ما أضحى هذا الثغر النشيط العامل أهم مراكز التصدير وإعادة الشحن للتجارة المتبادلة بين الشرق والغرب. وفى ذلك يقول إسقراط : « لقد كان من اليسير أن يبتاع الإنسان فى أثينة جميع ما يصعب عليه أن يجده إلا فى أماكن متفرقة سلعة منه فى هذه المدينة وسلعة فى تلك »[٣٠] . ويقول توكيديدس « إن عظمة مدينتنا تجذب غلات العالم كله إلى مرفئنا ، حتى أصبحت ثمار البلاد الأخرى من مواد الترف المألوفة للأثينى كثمار بلده نفسه »[٣١] . وكان التجار يحملون من پيرية ما تنتجه حقول أتكا وحوانيتها من الخمور ، والزيت ، والصوف ، والمعادن ، والرخام ، والخزف والأسلحة ، ومواد الترف ، والكتب ، والتحف الفنية ؛ ويأتون إلى پيرية بالحبوب من بزنطية ، وسوريا ، ومصر ، وإيطاليا ، وصقلية ؛ وبالفاكهة والجبن من صقلية وفينيقية ، وباللحوم من فينيقية وإيطالية ؛ والسمك من البحر الأسود ؛ والنُّقل من پفلاچونيا ، والنحاس من قبرص ؛ والقصدير من إنجلترا ؛ والحديد من شواطئ بحر البنتس ؛ والذهب من ثاسوس وتراقية ؛ والخشب من تراقية وقبرص ؛ والأقمشة المطرزة من بلاد الشرق الأدنى ؛ والصدف والكتان ، والأصباغ من فينيقية ، والتوابل من قورينة ؛ والسيوف من خلقيديا ؛ والزجاج من مصر ؛ والقرميد من كورنثة ؛ والأسرة من طشيوز وميليطس ؛ والأحذية

والبرونز من إتروريا ، والعاج من بلاد الحبشة ، والعطور والأدهان من بلاد العرب ، والرقيق من ليديا ، وسوريا ، وسكوذيا . ولم تكن المستعمرات أسواقاً فحسب ، بل كانت فوق ذلك وكالات شحن ترسل البضائع الأثينية إلى الداخل ، ومع أن مدائن أيونيا قد اضمحلت فى القرن الخامس قبل الميلاد لأن التجارة التى كانت تمر بها من قبل تحولت إلى البروبنتس وكاريا أيام الحرب الفارسية وبعدها ، فإن إيطاليا وصقلية قد حلتا محلها وأصبحت بلادهما ثغوراً لتصدير ما زاد على الحاجة من غلات بلاد اليونان الأصلية وسكانها ، وفى وسعنا أن نقدر قيمة تجارة بحر إيجة الخارجية إذا عرفنا أن حصيلة ضريبة الخمسة فى المائة المفروضة على صادرات مدن الإمبراطورية الأثينية وارداتها قد بلغت فى عام ٤١٣ ألفاً ومائتى وزنة ، ومعنى هذا أن التجارة قد بلغت قيمتها ١٤٤٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى فى ذلك العام .

وكان الخطر الكامن وراء هذا الرخاء هو اعتماد أثينة اعتماداً متزايداً على الحبوب المستوردة من خارجها ؛ ومن ثم كان حوصها على السيطرة على مضيق الهلسپنت والبحر الأسود ، وإصرارها على استعمار السواحل والجزائر الواقعة فى طريقها إلى المضايق ، وحملتها المشئومة على مصر فى عام ٤٥٩ ، وعلى صقلية فى عام ٤١٥ . واعتمادها هذا هو الذى أغراها بتحويل حلف ديلوس إلى إمبراطورية أثينية ؛ ولما أن دمر الإسپارطيون الأسطول الأثينى فى مضيق الهلسپنت عام ٤٠٥ ، كان لا بد أن تعانى أثينة آلام الجوع وأن تستسلم نتيجة لهذا التدمير . غير أن هذه التجارة هى التى جلبت الثراء لأثينة ، وكانت مع خراج إمبراطوريتها عماد رقيها الثقافى ، ذلك أن التجار الذين كانوا ينتقلون مع بضائعهم إلى جميع بقاع البحر الأبيض المتوسط كانوا يعودون إليها بنظرات إلى

الحياة تختلف عن نظراتهم قبل خروجهم من بلدهم ، وبعقول متيقظة متفتحة ؛ وكانوا يأتون معهم بأفكار وأساليب جديدة ، يحطمون بها القيود القديمة والخمول القديم ، ويستبدلون بالتحفظ الأسرى الذى هو من طابع الأرستقراطية الريفية نزعة فردية تقدمية هى طابع الحضارة التجارية . وفى أثينة التقى الشرق بالغرب وبفضل هذا الالتقاء خرج كلاهما من أساليبه المألوفة العتيدة ، وفقدت الأساطير القديمة سيطرتها على نفوس الناس ، وزاد الفراغ ، وشجع البحث ، ونشأ العلم والفلسفة ، وأضحت أثينة أكثر مدن زمانها حيوية ونشاطاً .

---

obeikandl.com

الفصل الرابع

الأحرار والعبيد

ومنذا الذى كان يقوم بهذا العمل كله ؟ لقد كان يقوم به فى الريف المواطنون : أسرهم وعمال أحرار مأجورون ؛ أما فى أثينة نفسها فكان يؤدى بعضه المواطنون ، وبعضه العتقاء ، ويؤدى الكثير منه الغرباء المهاجرون ، ويؤدى معظمه الأرقاء . ويكاد أصحاب الحوانيت ، والصناع ، والتجار ، ورجال المصارف ، أن يكونوا كلهم من الطبقات التى ليس لها حق الانتخاب ، وكان أهل المدينة ينظرون بعين الاحتقار إلى العمل اليدوى ، ولا يؤدون منه إلا القليل الذى لابد لهم من أدائه ، لأن العمل لكسب العيش كان فى اعتقادهم يحط من قدر صاحبه ، بل إن الأعمال المهنية ، وتعليم الموسيقى ، والنحت ، والتصوير ، كان فى نظر الكثيرين من اليونان « مهنة دنيئة(*) » . وهاهو ذا زنوفون يتحدث فى زهو وفى غير مجاملة بوصفه واحداً من طبقة الفرسان فيقول :

« إن الجماعات المتمدينة ترى أن ما يسمونه بالفنون الآلية الحقيرة تزرى بصاحبها . . . . وهى محقة فى نظرته هذه ؛ ذلك بأن العمل فيها يهلك أجسام القائمين به ، سواء فيهم العمال ومن يشرفون عليهم ، فهى تضطرهم إلى أن يقضوا وقتهم جالسين فى نور ضئيل أو جاثمين أياماً طوالا أمام الأفران .

(*) پركليز تأليف للوطرخص ؛ ويرى زمرمان فى كتابه « مجموعة الأمم اليونانية The Greek Commonwealth » ص ٢٧٢ وفرجسون Ferguson فى كتاب « الاستعمار اليونانى » أن احتقار الأثينيين للأعمال اليدوية قد بولغ فى وصفه كثيرا ؛ ولكن جلتز Glotz فى كتابه « بلاد اليونان القديمة تعمل Ancient Greece at Work » ص ١٦٠ يقول خلاف هذا .

وهذا الضعف الجسمى يصحبه على الدوام ضعف نفسانى ؛ وفوق هذا وذاك فإن ما تتطلبه هذه الفنون الآلية الحقيرة من الوقت لا يترك للمشتغلين بها فراغاً ينفقونه فى مطالب الصداقة أو الدولة(٣٢) » :

وكان ينظر إلى التجارة هـذه النظرة نفسها ، فكان اليونانى الأرستقراطى النزعة أو الفيلسوف لا يعدها إلا وسيلة لجمع المال مع إلحاق الأذى بمن يجمع منهم ؛ وهى فى رأى هذا وذاك لا تبغى خلق السلع ، بل كل ما تبغيه هو شراؤها رخيصة وبيعها غالية ؛ ولهذا فما من مواطن خليق بالاحترام يرضى أن يعمل فيها وإن كان لا يستنكف أن يستثمر فيها ماله ويربح من هذا الاستثمار ما دام يترك لغيره أن يقوم بالعمل . ويقول اليونانى إن الحر يجب أن يتحرر من الواجبات الاقتصادية ، وإن عليه أن يستخدم العبيد وغيرهم من الناس ليعتنوا بشئونه المادية ، بما فى ذلك ، إن استطاع ، العناية بأملاكه وأمواله . وهذا التحرر وحده هو الذى يترك له الوقت الكافى للقيام بأعباء الحكم ، والحرب ، والأدب والفلسفة . فإذا لم توجد هذه الطبقة المتفرغة لهذه الشئون لم يوجد ، كما يرى اليونانى ، ذوق راق ، ولن يكون فى البلاد من يشجع الفنون ، ولن تقوم للحضارة قائمة على الإطلاق ؛ ذلك أن من يعمـل مسرعاً لا يمكن أن يكون متمدناً بحق .

وكان الغرباء الأحرار ، الذين ولدوا فى بلاد أجنبية واتخذوا أثينة موطناً لهم ولكنهم لا يعدون من مواطنيها ، كان هؤلاء الغرباء هم الذين يؤدون فى أثينة معظم الأعمال ذات الصلة التاريخية بالطبقة الوسطى ، فكان منهم رجال المهن ، والتجار ، والمقاولون ، والصناع ، والمديرون للأعمال التجارية والصناعية ، وأصحاب الحوانيت ، وأرباب الحرف ، والفنانون ، وقد استقر هؤلاء فى أثينة لأنهم وجدوا فيها ، بعد تجوالهم فى البلاد الأخرى ، ما ينشدونه من الحرية الاقتصادية وفرص الحياة والحافز على العمل وبذل

الجهود ، وهذه أهم فى نظرهم من حق الانتخاب . ولهذا كانت أهم الأعمال الصناعية — خارج نطاق التعدين — ملكاً لهؤلاء الغرباء الأحرار ، فصناعة الخزف بأكملها كانت فى أيديهم ، وكانوا يوجدون كلما استطاع الوسطاء أن يحشروا أنفسهم بين المنتج والمستهلك . وكانت شرائع البلد تضايقهم وتحميهم ، فكانت تفرض عليهم من الضرائب ما تفرضه على المواطنين ، وتلزمهم بأن يؤدوا خدمات شخصية للدولة ، وتحندهم للخدمة العسكرية ، وكانوا يؤدون لها ضريبة الفرضة ؛ ولكنها كانت تحرم عليهم امتلاك الأرض والزواج من أسر المواطنين ، ولا تسمح لهم بالانضمام إلى الهيئات الدينية أو الالتجاء بأنفسهم إلى المحاكم . ولكنها كانت ترحب بهم فى حياتها الاقتصادية ، وتقدر لهم جدهم وحذقهم ، وتنفذ لهم عقودهم ، وتترك لهم حريتهم الدينية ، وتحمى أموالهم من الثورات العنيفة . وكان منهم من يباهون بثروتهم مباهاة سمجة ، ولكن كان منهم أيضاً من يشتغلون بالعلوم ، والآداب ، والفنون ، ويمارسون مهنة الطب أو القانون ، أو ينشئون مدارس لتعليم البلاغة والفلسفة ، وهم الذين أمدوا بالمال مؤلفى المسرحيات الهزلية فى القرن الرابع ، وكانوا هم موضوع هذه المسرحيات ، وأصبحوا فى القرن الثالث هم المثال المحتذى فى آداب المجتمع الهلنستى . وكان حرمانهم من حقوق المواطنية يؤلمهم ويحز فى نفوسهم ، ولكنهم كانوا يحبون أثينة ويفخرون بانتسابهم إليها ، ويؤدون على مضض كثيراً من الأموال التى تحتاجها للدفاع عن نفسها ضد أعدائها . ومن مال هذه الطبقة استمد الأسطول معظم حاجته ؛ وكانت هى عماد الإمبراطورية الأثينية ، وبفضلها احتفظت أثينة بتفوقها التجارى على سائر بلاد اليونان .

وكان يشارك الغرباء فى الحرمان من بعض الحقوق السياسية ؛ وفيما يتاح لهم من الفرص الاقتصادية ، العتقاء ، أى الذين كانوا من قبل عبيداً . ذلك أن الأمل فى الحرية حافز اقتصادى قوى للعبد الشاب وإن لم يكن من السهل المألوف أن يعتق العبد لأن عبداً آخر يجب أن يحل فى العادة محله ؛ لكن كثيرين من اليونان

كانوا إذا قربت منيتهم يكافئون أشد عبيدهم إخلاصاً بعتقهم . كذلك كان العبد يعتق إذا افتداه أهله أو أصدقاؤه كما حدث لأفلاطون ؛ أو افتدته الدولة نفسها من سيده نظير خدماته لها فى الحرب ؛ وقد يبتاع هو نفسه حريته بما يدخره من الأبولات . وكان العبد المحرر يعمل ، كما يعمل الغريب السالف الذكر ، فى الصناعة والتجارة والشئون المالية . وكان أقل ما يقوم به من الأعمال شأناً هو أداء عمل العبد نظير أجر ؛ وكان أعظم ما يبلغه هو أن يكون صاحب إحدى الصناعات . فقد كان ميلياس Mylias مثلا هو المشرف على مصنع الأسلحة الذى يمتلكه دموستين ؛ وأصبح پاسيون ، وفورميو أغنى رجال المصارف فى أثينة . وكان أهم الأعمال التى تظهر قيمة العبد المحرر هى الأعمال التنفيذية ، وذلك لأن أقسى الناس على العبيد هو الذى نشأ فى ظل العبودية ولم يعرف طول حياته إلا الظلم والاستبداد .

وكان من تحت هذه الطبقات الثلاث — طبقات المواطنين والغرباء والمعاتيق — عبيد أتكا البالغ عددهم ١١٥٫٠٠٠ عبد(*) . وهؤلاء العبيد إما أسرى حرب ، أو ضحايا غارات الاسترقاق ، أو أطفال أنقذوا وهم معرضون فى العراء ، أو أطفال مهملون ، أو مجرمون . وكانت قلة منهم فى بلاد اليونان يونانية الأصل ؛ وكان الهلينى يرى أن الأجانب عبيد بطبعهم لأنهم يبادرون بالخضوع إلى الملوك ، ولهذا لم يكن يرى فى استعباد اليونان لهؤلاء الأجانب ما لا يتفق مع

(*) ومرجعنا فى هذا الرقم هو جم Gomme . وربما كان عددهم أكبر من هذا كثيرا : فسويداس Suidas يقدر عدد العبيد الذكور وحدهم بمائة وخمسين ألفا (٣٤). معتمدا فى تقديره هذا على خطبة معزوة إلى هيپريدس ألقيت فى عام ٣٣٨ ، وإن لم تكن نسبتها إليه موثوقا بصحتها . ويقول أثينيوس ، وهو ممن لا يعتمد كثيرا على أرقامهم ، إن تعداد سكان أتكا الذى أجراه دمتريوس فالريوس حوالى عام ٣١٧ يقدر المواطنين بواحد وعشرين ألفا ، والغرباء بعشرة آلاف ، والمحررين والأرقاء بأربعمائة ألف . ويقدر تيميوس حوالى عام ٣٠٠ عبيد كورنثة بأربعمائة وستين ألفا ، ويقدر أرسطو حوالى عام ٣٤٠ عبيد إيجينا بأربعمائة وسبعين ألفا(٣٥) . ولعل السبب فى ضخامة هذه الأعداد أنها تشمل العبيد الذين كانوا يعرضون للبيع عرضاً مؤقتا فى أسواق الرقيق القائمة فى كورنثة ؛ وإيجينا وأثينة .

العقل ؛ لكنه كان يغضبه أن يُسترق يونانى . وكان التجار اليونان يشترون العبيد كما يشترون أية سلعة من السلع ، ويعرضونهم للبيع ، فى طشيوز ، وديلوس ، وكورنثه ، وإيجينا ، وأثينة ، وفى كل مكان يجدون فيه من يشترونهم . وكان النخاسون فى أثينة من أغنى سكانها الغرباء ؛ ولم يكن من غير المألوف فى ديلوس أن يباع ألف من العبيد فى اليوم الواحد ؛ وعرض سيمون بعد معركة يوريمدون عشرين ألفاً من الأسرى فى سوق الرقيق(٣٦) . وكان فى أثينة سوق يقف فيه العبيد متأهبين لأن يفحص عنهم وهم مجردون من الثياب ، وأن يساوم على شرائهم فى أى وقت من الأوقات . وكان ثمنهم يختلف من نصف مينا إلى عشر مينات (من ٥٠ ريالا أمريكيا إلى ألف ريال) . وكانوا يشترون إما لاستخدامهم فى العمل مباشرة ، أو لاستثمارهم ؛ فقد كان أهل أثينة الرجال منهم والنساء يجدون من الأعمال المربحة أن يبتاعوا العبيد ثم يؤجروهم للعمل فى البيوت أو المصانع ، أو المناجم . وكانت أرباحهم من هذا تصل إلى ٣٣ فى المائة(٣٧) . وكان أفقر المواطنين يمتلك عبداً أو عبدين ؛ ويبرهن إسكينز Aeschines على فقره بالشكوى من أن أسرته لا تمتلك إلا سبعة عبيد ؛ وكان عددهم فى بيوت الأغنياء يصل أحياناً إلى خمسين(٣٨) ، وكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم فى الأعمال الكتابية وفى خدمة الموظفين ، وفى المناصب الصغرى ، وكان منهم بعض رجال الشرطة . وكان كثيرون من هؤلاء يحصلون من الدولة على الملابس ، وعلى « مكافأة » يومية مقدارها نصف درخمة ، وكان يؤذن أن يسكنوا حيث يشاءون .

أما فى الريف فكان العبيد قليلى العدد ، وكانت كثرة الرقيق من النساء الخادمات فى البيوت . ولم يكن الأهلون فى شمالى بلاد اليونان وفى معظم البلوبونيز فى حاجة إلى العبيد لاستغنائهم عنهم برقيق الأرض . وكان العبيد فى كورنثة ، ومجارا ، وأثينة ، يؤدون معظم الأعمال اليدوية الشاقة ، كما كانت الجوارى يقمن بمعظم الأعمال المنزلية المجهدة . ولكن العبيد كانوا فوق ذلك يقومون

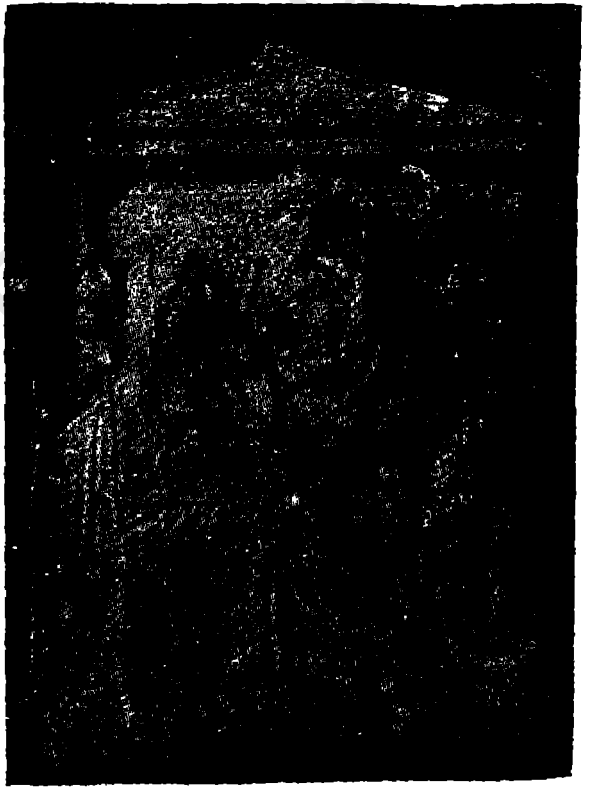

(شكل ٢٦) لوحة دستستراق متحف أثينة

(شكل ٢٧) هرقل وأطلس من هيكل زيوس فى متحف أولمپيا

بجزء كبير من الأعمال الكتابية وبمعظم الأعمال التنفيذية فى الصناعة ، والتجارة ، والشئون المالية . أما الأعمال التى تحتاج إلى الخدمة فكان يقوم بها الأحرار والمحررون ، والغرباء ، ولم يكن هناك عبيد علماء كما ترى فيما بعد فى العصر الهلنستى وفى رومة ، وقلما كان يسمح للعبد بأن يكون له أبناء لأن شراء العبد كان أرخص من تربيته . وكان العبد إذا أساء الأدب ضرب بالسوط ، وإذا طلب للشهادة عذب ، وإذا ضربه حر لم يكن له أن يدافع عن نفسه ، لكنه إذا تعرض للقسوة الشديدة كان له أن يفر إلى أحد الهياكل ، ثم يلزم سيده ببيعه ، ولم يكن يحق لسيده بأية حال أن يقتله ، وكان يلقى من الضمانات ؛ ما دام يعمل ، ما لا يلقاه كثيرون ممن لا يسمون عبيداً فى بعض الحضارات الأخرى . فكان إذا مرض ، أو تقدمت به السن ، أو لم يجد عملا يقوم به ، لا يلقى به سيده إلى الإعانات العامة ، بل كان يستمر فى رعايته . وإذا كان وفياً عومل معاملة الخادم المخلص الأمين التى تكاد تضارع معاملة أى فرد من أفراد الأسرة ، وكثيراً ما كان يسمح له بأن يقوم بعمل خارجى على شريطة أن يؤدى لسيده بعض ما يكسب من هذا العمل . وكان يعفى من الضرائب ومن الخدمة العسكرية ؛ ولم يكن شىء فى ثيابه يميزه من الحر فى أثينة خلال القرن الخامس قبل الميلاد . وهاهو ذا « الأجركى القديم » يشكو فى نشرة له عن نظام الأثينيين من أن العبا لا يفسح الطريق فى الشارع للمواطنين ، ومن أنه يتكلم بحرية ، ويتصرف فى كل صغيرة وكبيرة كأنه كفء للمواطن[٣٩] . واشتهرت أثينة بحسن معاملة عبيدها ، وكان من المعروف أن العبيد فى أثينة الدمقراطية أحسن حالا من الأحرار الفقراء فى الدويلات الأجركية[٤٠] ، وكانت ثورات العبيد نادرة فى أتكا وإن كانت مما يخشى وقوعه القائمون بالأمر فيها[٤١] .

ومع هذا فإن ضمائر الأثينيين لم تكن ترتاح إلى وجود الرق فى بلدهم ، وإن الفلاسفة الذين يدافعون عن هذا النظام ليظهرون فى وضوح لا يكاد

يقل عن وضوح من ينددون به . أن ما طرأ على الأمة من تطور أخلاق قد جعلها أرق من نصمها الاجتماعية . فهاهو ذا أفلاطون يندد باستعباد اليونان لليونان ، ولكنه فيما عدا هذا يقر الاسترقاق بحجة أن لبعض الناس عقولا غير ممتازة[٤٢] . وينظر أرسطو إلى العبد على أنه آلة بشرية ، ويظن أن الاسترقاق سيبقى فى صورة ما حتى يحل اليوم الذى تؤدى فيه الآلات التى تدور بنفسها جميع الأعمال الحقيرة[٤٣] . وليس لدى اليونانى العادى فكرة ما عن الطريقة التى يمكن بها أن تسير أعمال المجتمع المثقف من غير الرق ، وإن كان هذا اليونانى رحيما بعبيده ؛ فهو يشعر بأنه إذا أريد إلغاء الرق ، وجب إلغاء أثينة من الوجود . أما غيره فأكثر تطرفاً فى آرائهم ، فالفلاسفة الكلبيون يحكمون على الرق أسوأ حكم ، ومثلهم فى هذا خلفاؤهم الرواقيون وإن كانوا أقل عنفاً فى حكمهم عليه . وكثيراً ما يثير يوريديز عطف مستمعيه بما يصوره لهم من حال أسرى الحرب . ويطوف السيد ماس السوفسطائى بلاد اليونان يبشر فيها بعقائد روسو فى ألفاظ تكاد تكون ألفاظ روسو بعينها دون أن يتعرض له أحد بسوء : « لقد بعث الله الناس فى العالم أحراراً ، ولم تجعل الطبيعة أحد الناس عبداً[٤٤] » . لكن الاسترقاق ظل قائماً رغم هذا كله .

الفصل الخامس

حرب الطبقات

كان استغلال الإنسان للإنسان فى أثينة وطيبة أقل قسوة منه فى اسبارطة وروما ، ولكنه كان على أية حال استغلالا يؤدى الغرض المقصود منه . فلم يكن بين الأحرار فى أثينة طوائف ممتازة وأخرى غير ممتازة ، وكان فى مقدور الرجل أن يرقى بجهوده وحدها إلى أية مرتبة فى الحياة ، ولم يكن فيها تمييز طائفى شديد بين العامل وصاحب العمل ، اللهم إلا فى المناجم ؛ أما فى غيرها فكان صاحب العمل يشتغل إلى جوار عماله ، وكان التعارف الشخصى بين الاثنين يفل من حدة سلاح الاستغلال ، وكان أجر الصناع جميعاً ، إلا القليل النادر منهم ، أيا كانت طبقتهم ، هو درخمة للرجل فى كل يوم من أيام العمل[٤٥] ، أما العمال غير الحاذقين فقد تنخفض أجور الواحد منهم إلى ثلاث أبولات فى اليوم (نصف ريال أمريكى[٤٦]) . ولما نما نظام المصانع أخذ الأجر بالقطعة يحل محل المياومة وبدأت الأجور تختلف اختلافاً كبيراً ، وكان فى وسع المقاول أن يستأجر العبيد من سادتهم بأجر يتراوح بين أبولة واحدة وأربع أبولات فى اليوم[٤٧] . وفى وسعنا أن نقدر القوة الشرائية لهذه الأجور إذا وازنا الأثمان فى بلاد اليونان بأمثالها فى بلادنا[*] ، لقد كان البيت والضيعة فى عام ٤١٤ يباعان معاً بألف ومائتى درخمة ، وكان المندموس Mendimmus أى البشل والنصف من الشعير يباع بدرخمة واحدة فى القرن السادس ، وبخمس درخمات فى أيام الإسكندر ، وكان الخروف يباع بدرخمة فى أيام صولون ، وبعشر درخمات أو عشرين فى القرن

(*) يريد فى أمريكا . (المترجم)

الخامس[٤٨] . وكانت النقود المتداولة فى أثينة كغيرها من المدن تزيد أسرع مما تزيد البضائع ، ولهذا كانت الأثمان ترتفع ؛ فكانت أثمان السلع فى آخر القرن الرابع خمسة أمثال ما كانت فى بداية القرن السادس ؛ وقد تضاعفت هذه الأثمان ضعفين من عام ٤٨٠ إلى ٤٠٤ ثم تضاعفت مرة أخرى من ٤٠٤ إلى ٣٣٠[٤٩] .

وكان فى وسع الرجل الفرد أن يعيش عيشة راضية بمائة وعشرين درخمة (١٢٠ ريال أمريكى) فى الشهر[٥٠] ؛ ومن هذا نستطيع أن نحكم على حال العامل الذى كان يكسب ثلاثين درخمة فى الشهر ويعول أسرة . ولسنا ننكر أن الدولة كانت تبادر إلى معونته فى الأزمات الشديدة فتمده بالحبوب بثمن اسمى ؛ ولكنه كان يشاهد أن ربة الحرية ليست صديقة لربة المساواة ، وأن الشرائع الحرة فى أثينة كانت تمكن القوى من أن يزداد قوة ، والغنى من أن يزداد غنى ، أما الفقير فكان يبقى فى ظلها(*) فقيراً[٥١] .

ومن الحقائق المعروفة أن الفردية تحفز القادرين إلى العمل ، وتنزل بالسذج ، وأنها تنشئ الثروات الضخمة ، وتركزها تركيزاً وخيم العاقبة : ولذلك كان المهرة الحاذقون فى أثينة ، كما كانوا فى غيرها من الدول ، يحصلون من الثروة كل ما يستطيعون تحصيله ، ثم يحصل أوساط الناس ما يتبقى من هؤلاء . وكان مالك الأرض يفيد من ارتفاع ثمن أرضه المطرد ؛ وكان التاجر لا يدخر جهداً ، رغم ما فرض عليه من القيود التى لا تحصى لاحتكار الأصناف أو ابتياع كل ما هو معروض منها فى الأسواق ثم التحكم فى أثمانها على هواه . وكان المضارب ينال حصة الأسد من أرباح الصناعة

(*) ولا حاجة إلى القول بأن الثروات العظيمة عند اليونان الأقدمين تعد متواضعة إذا قدرت بمعايير هذه الأيام ، .فقد قيل إن كلياس أغنى أغنياء الأثينيين كان يمتلك مائتى وزنة (١٫٢٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) وإن نيشياس كان يمتلك مائة وزنة (٥٢) .

obeikandi.com

والتجارة بفرض سعر مرتفع لفائدة القروض التى يقدمها لأصحاب الصناعات والتجار . وقام زعماء الجماهير المحترفون يبينون للفقراء ما فى توزيع الثروة بين الناس من غبن ، ويخفون عنهم عدم المساواة فى كفاياتهم من الناحية الاقتصادية ؛ وأخذ الفقير بعد أن أبصر بعينيه ثراء المثرين يحس بفقره ويطيل التفكير فى ميزانه التى لا يجزى عليها الجزاء الأوفى ، ويحلم بقيام الدول المثالية . ومن ثم كانت الحرب بين طبقة وطبقة ، وهى الحرب التى استعرت نارها فى جميع الدول اليونانية ، والتى كانت أشد هولا من الحرب بين اليونان والفرس ، أو بين أثينة وإسپارطة .

وبدأت هذه الحرب فى أتكا بالنزاع بين الأغنياء المحدثين والأشراف أصحاب الأراضى الزراعية : ذلك أن الأسر الغنية كانت لا تزال تحب الأرض ، وتحب أن تقضى معظم حياتها فى ضياعها ، وكان تقسيم الأرض بين الأبناء وأبناء الأبناء خلال الأجيال الطويلة قد قلل مساحة ما يملكه كل واحد منها[٥١] . (فلم يكن السبيديز الثرى مثلا يملك أكثر من سبعين فداناً) . وكان مالك الأرض فى معظم الأحوال يعمل بنفسه فى أرضه أو يشرف على إدارة أملاكه ، وكان هذا الشريف فخوراً بنفسه وأصله . وإن لم يكن غنياً بماله ، فكان يضيف اسم أبيه إلى اسمه ليكون ذلك من ألقاب الشرف له ، ويبتعد قدر استطاعته عن طبقة التجار الوسطى التى كانت تستحوذ شيئاً فشيئاً على ثروة أثينة التجارية الآخذة فى النماء . غير أن زوجته كانت تلح عليه أن يكون له بيت فى المدينة لتستمتع بما فى العاصمة من الحياة المتنوعة وبما تتيحه من فرص ، وكانت بناته يرغبن فى أن يعشن فى أثينة ، ليتصيدن لهن أزواجاً أثرياء ، وكان أبناؤه يرجون أن يجدوا فيها الخليلات ويقيموا المآدب المرحة كما يفعل الأغنياء المحدثون . وإذا لم يكن فى مقدور الأشراف ملاك الأراضى أن ينافسوا التجار والصناع فى ترفهم فقد رضوا بهم أو بأبنائهم أزواجاً لأولادهم وبناتهم ، وكان هؤلاء التجار والصناع راغبين فى أن يتسنموا ذرى

المجد مستعدين للبذل . وكانت نتيجة هذا اتحاد الأغنياء بأرضهم مع الأغنياء بمالهم وتكوين طبقة عليا أجركية ، يحسدها الفقراء ويحقدون عليها ، ويغضبها الإفراط فى الدمقراطية وتخشى على نفسها من الثورة .

وكان صلف الأثرياء الجدد هو الذى أدى إلى المرحلة الثانية من مراحل حرب الطبقات — أى نزاع المواطنين الفقراء مع الأغنياء . ذلك أن كثيرين من أفراد الطبقات الوسطى الرأسمالية أخذوا يباهون مثل ألسبيديز بثرائهم وإن لم يكن من بينهم إلا القليلون الذين يستطيعون أن يسخروا « جمهرة الكادحين » بجرأتهم الروائية ورشاقة مظهرهم ورقة حديثهم . وقام الشبان الذين أحسوا بما وهبوا من كفايات يحول فقرهم دون إبرازها والإفادة منها ، فنقلوا حاجتهم الشخصية إلى الفرص والمكانة السامية من دائرتهم الخاصة إلى نداء عام بالثورة ، وتكفل المتعلمون الذين يرحبون بالآراء الجديدة ويستهويهم هتاف المظلومين بصياغة أغراض ثورتهم إليهم(٥٤) . ولم يكونوا ينادون باشتراكية التجارة والصناعة ، بل كانوا يطلبون إلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضى على المواطنين ، ونقول على المواطنين لأن الحركة المتطرفة التى قامت فى أثينة فى القرن الخامس لم يشترك فيها إلا من لهم حق الانتخاب من الفقراء ، ولم تكن تحلم فى هذه المرحلة بتحرير العبيد ، أو إعطاء الغرباء نصيباً من الأرض التى تطالب بإعادة توزيعها . وكان الزعماء يتحدثون عن الماضى الذهبى حين كان الناس جميعاً متساوين فيما يملكون ، ولكنهم لم يكونوا يريدون أن توخذ أقوالهم بنصها حين يتحدثون عن عودة هذا الفردوس المفقود ، بل كانت الصورة المرسومة فى أذهانهم صورة مجتمع اشتراكى أرستقراطى — لا ينطوى على . تأميم الأرض بل ينطوى على توزيعها بالتساوى بين المواطنين . وكانوا يشيرون إلى أن المساواة فى الحقوق السياسية ستكون بلا ريب مساواة غير حقيقية مع وجود تلك الفوارق الاقتصادية

المطّردة الزيادة ، ولكنهم كانوا مصممين على استخدام ما للمواطنين الفقراء من سلطان سياسى لحمل الجمعية على أن تضع فى جيوب المحتاجين — بالغرامات ، والتكاليف ، والمصادرة ، والأشغال العامة[٥٥] — بعض الثروة المركزة لدى الأغنياء[٥٦] . واتخذوا اللون الأحمر رمزاً لثورتهم فضربوا بذلك المثل للثائرين فى مستقبل الأيام[٥٧] .

وواجه الأغنياء هذا التهديد فألفوا من بينهم هيئات سرية تعهدوا فيها أن يعملوا مجتمعين لمقاومة ما يسميه أفلاطون — رغم نزعته الشيوعية — « الوحش الضارى » الكامن فى نفوس الغوغاء المستنفرين الجياع[٥٨] . وانتظم العمال الأحرار أيضاً — وكانوا قد انتظموا منذ أيام صولون إن لم يكن قبله — فى نواد (إرانوى ، ثياسوى eranoi, thiasoi) للبنائين ، وقاطعى الرخام ، وعمال الخشب ، والعاملين فى العاج أو الفخار ، والسماكين ، والممثلين ومن إليهم من الجماعات . وكان سقراط نفسه عضوا فى نادى المثالين[٥٩](*) . بيد أن هذه الجماعات لم تكن نقابات عمال بقدر ما كانت جماعات لتبادل المنفعة ، فكان أعضاؤها يجتمعون فى أماكن لهم يسمونها مجامع مقدسة ، يقيمون فيها المآدب والألعاب ، ويعبدون فيهم رباً يحميهم ، ويقدمون المال للمرضى من الأعضاء ، ويتعاقدون مجتمعين على القيام بمشروع خاص ، ولكنهم لم يشتركوا اشتراكاً ملحوظاً فى حرب الطبقات الأثينية . ودارت المعركة فى ميدانى الأدب والسياسة ؛ فشرع مصدرو النشرات أمثال « الأجركى القديم » يصدرون النشرات ينددون فيها بالدّمقراطية أو يدافعون عنها . وإذ كانت مسرحيات الشعراء الهذليين تطلب آراء الأغنياء

(*) انتظم المثالون والمهندسون المعماريون فى بلاد اليونان و طائفة لهم هى طائفة البنائين كانت لها شعائرها الدينية الخلفية الخاصة بها ، وكانوا هم أسلاف جماعة البنائين الأحرار (الماسون) التى قامت فى أوروبا فيما بعد .

لإخراجها ، فقد انضم هؤلاء إلى جانب ذوى المال ، وشرعوا يصبون قوارص سخرياتهم على الزعماء المتطرفين وعلى دولهم المثالية . فترى أرسطوفان يقدم لنا فى مسرحية الإكلزيازوسى Ecclesiazusae (٣٩٢) السيدة بركساغورا Praxagora الشيوعية تلقى خطبه تقول فيها : « أريد أن يكون لكل الناس نصيب فى كل شىء ، وأن يكون كل الملك مشاعاً ؛ فلن يكون بعد اليوم أغنياء أو فقراء ؛ ولن نرى بعد الآن رجلا واحدا يجنى محصول مساحات واسعة من الأرض وإلى جانبه رجل آخر لا يجد منها ما يتسع لدفنه . . . . وسأعمل على ألا يكون فى الحياة إلا ظروف واحدة يشترك فيها جميع الناس على السواء . . . . وسأبدأ بأن أجعل الأرض والمال وكل ما هو ملك خاص مشاعاً بين الناس أجمعين . . . . وستكون النساء ملكاً مشتركاً للرجال » . ويسأل بليبروس Blepyrus : « ولكن العمل من يقوم به » فتجيبه بقولها : « العبيد » . وفى ملهاة أخرى هى ملهاة بلوتوس Plutus (٤٠٨) يجيز أرسطوفان للملكية المهددة بالانقراض أن تدافع عن نفسها بقولها إنها هى الحافز الذى لا بد منه للكدح البشرى والمغامرة . « أنا السبب الوحيد فى كل ما بكم من نعمة ، وإن سلامتكم لتعتمد علىّ دون غيرى . . . . ومنذا الذى يحب أن يطرق الحديد ويبنى السفن ، ويخيط الثياب ، ويخرط الخشب ، ويقطع الجلد ، ويحرق الآجر ، ويبيض التيل ، ويدبغ الجلود ، ويشق الأرض بالمحراث ، ويجنى ثمار دمتر إذا كان فى وسعه أن يعيش بغير عمل محترزا من كل هذه المشاق . . . ؟ فإذا ما طبق نظامك (الشيوعية) . . . فلن تستطيعى أن تنامى فى سرير ، لأن الأسرة فى هذه الحال لن يصنع منها شىء بعد ، ولن تنسج بسط ، وهل فى الناس من يرضى أن ينسجها إذا كانت لديه الذهب ؟[٦٠] » .

وكانت إصلاحات إفيلتيز وبركليز ياكورة ثمار الثورة الديمقراطية . وكان بركليز

رجلا متزناً فى أحكامه معتدلا فى أغراضه ؛ فهو لم يكن يبغى القضاء على الأغنياء ، بل كان يريد أن يحتفظ بهم وبإقدامهم على الأعمال النافعة بتخفف عبء الحياة عن الطبقات الفقيرة ؛ فلما مات فى عام ٤٢٩ جرف تيار التطرف الدمقراطية الأثينية إلى حد لم يسع الحزب الأرستقراطى معه إلا أن يأتمر مرة أخرى مع اسپارطة ، وأن يدفع الأغنياء إلى الثورة مرة فى عام ٤١١ ومرة أخرى فى عام ٤٠٤ . بيد أن الثروة فى أثينة كانت عظيمة ، وكان خوف المواطنين من ثورة الأرقاء سبباً فى وقف تيار ثورتهم إلى حين ، ولهذا كانت حرب الطبقات فى أثينة أهدأ منها فى غيرها من الدول اليونانية ، حيث لم يكن للطبقات الوسطى من القوة ما يمكنها من أن تتوسط بين الأغنياء والفقراء ، وسرعان ما وجدت الطبقات فى أثينة أساساً صالحاً تقيم عليه أساس التراضى فيما بينهما . ففى ساموس استولى المتطرفون على زمام الحكم فى عام ٤١٢ ، وأعدموا مائتين من الأشراف ، ونفوا أربعمائة آخرين ، وقسموا الأرض والبيوت فيما بينهم[٦٦] ، وأقاموا مجتمعاً آخر شبيهاً بالمجتمع الذى قضوا عليه . وفى ليونتينى طرد العامة فى عام ٤٢٢ الأقلية المثرية الحاكمة ، ولكنهم سرعان ما لاذوا هم أنفسهم بالفرار . وفى كورسيرا اغتالت الأقلية المثرية الحاكمة ستين من زعماء حزب الشعب ، واستولى الدمقراطيون على أزمة الحكم ، وزجوا بأربعمائة من الأشراف فى السجون ، وساقوا خمسين منهم إلى المحاكمة أمام هيئة نستطيع أن نسميها « لجنة الأمن العام » ، وأعدموا الخمسين كلهم فى التو والساعة ؛ ولما رأى المسجونون الأحياء ما حل بزملائهم قتل بعضهم بعضاً ، وقتل بعضهم أنفسهم ، وحوصر الباقون منهم فى هيكل المدينة الذى لجأوا إليه حتى هلكوا من الجوع . ويصف توكيديدس حرب الطبقات فى بلاد اليونان وصفاً ينطبق على حروب الطبقات فى جميع الأوقات يقول فيه :

« ظل أهل كرسيرا سبعة أيام طوال يذبحون من مواطنيهم من يرون أنهم

أعداء لهم ؛ ومع أن الجريمة المعزوة إليهم كانت أنهم حاولوا القضاء على الدمقراطية ، فإن منهم من قتل بسبب الكراهية الشخصية ، ومنهم من قتلهم المدينون لهم ليتخلصوا بقتلهم من ديونهم . وهكذا انتشر الموت فى البلد بجميع أشكاله ، وحدث فى هذا الوقت ما يحدث فى أمثاله فلم يقف العنف عند حد . كان الآباء يقتلون أبناءهم ، وكان اللائذون بالهيكل يسحبون على وجوههم من فوق مذبح القربان أو يقتلون . . . وهكذا جرت الثورة فى مجراها متنقلة من مدينة إلى مدينة ، وسارت الأماكن التى وصلت إليها فى آخر الشوط فيما اخترعته من وسائل العنف وفيما ارتكبته من الفظائع فى انتقامها من خصومها إلى أبعد مما سارت إليه الأماكن التى تقدمتها بعد أن سمعت بما كان يجرى فى هذه الأماكن السابقة . . ؛ وضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول فى تلك الجرائم ، . . . وفى حروب الانتقام التى لجأ إليها المحكومون . . . الذين لم ينعموا فى حياتهم بالعدالة فى المعاملة . . . بل لم يلاقوا من حكامهم شيئاً سوى العنف ، وذلك حين جاء دورهم وتولوا هم شئون الحكم . كذلك ضربت كرسيرا لسائر المدن المثل الأول فى الحقد الظالم الذى تنطوى عليه صدور الذين يريدون أن يتخلصوا مما ألفوه من فقر وتمتلئ صدورهم طمعاً فيما فى أيدى جيرانهم من نعم ، وضربت المثل أكثر من هذا وذاك للإفراط فى الوحشية والقسوة التى اندفع إليها بعواطفهم الثائرة رجال لم يبدأوا الكفاح بروح طائفية بل بروح حزبية ... وفى غمار هذه الفوضى التى تردت فيها الحياة فى المدن كشفت الطبيعة البشرية ، التى تثور دائماً على القانون والتى أصبحت الآن سيدة القانون ، عن عدم قدرتها على ضبط عواطفها ، وعن أنها لا تقيم وزناً للعدالة ، وعن عدائها لكل سلطة علينا ... وأصبحت الجرأة والوقاحة فى نظر الناس شجاعة تُرتضَى من حليف وفى ؛ كما أصبح التردد الحكيم جبناً مموهاً ؛ وأضحى الاعتدال

فى نظر الناس ستاراً يخنى وراءه خور العزيمة ؛ والقدرة على رؤية جميع نواحى مسألة من المسائل عجزاً عن العمل فى واحدة منها . . .

وكان مصدر هذه الشرور كلها هو الجرى وراء السلطان المنبعث من الشره والطمع . . . واندفع الزعماء فى المدن يطلبون لأنفسهم الجزء الأوفى من المنافع العامة التى يتظاهرون بالحرص عليها مستعينين على ذلك بأجمل العبارات التى يلقونها فى الآذان ، يدعون فيها إلى المساواة السياسية بين الناس تارة ، وبضرورة قيام أرستقراطية معتدلة تارة أخرى : ولم يكن هؤلاء يترددون فى استخدام أية وسيلة توصلهم إلى السلطان ، فكانوا لذلك يرتكبون أشنع الجرائم . . . ولم تكن منهما من الطائفتين المقتتلتين توقر الدين ، وكان استخدام العبارات المنمقة للوصول بها إلى الغايات الإجرامية هو الوسيلة المحببة لسائر الناس . . . وكانت البساطة القديمة التى كان للشرف فيها أكبر نصيب موضع السخرية ، ومن أجل هذا لم يعد لها وجود ، وانقسم المجتمع إلى معسكرين لا يثق فيهما واحد من الناس بزميله . . . وقضى بين هذين المعسكرين على الشيعة المعتدلة من المواطنين لأنها لم تشترك فى الكفاح أو لأن الحسد كان يمنعها أن تفر من الميدان . . . وقصارى القول أن العالم الهلنى كله قد زلزلت قواعده وتصدعت أركانه(٦٤) .

ولم تقض هذه الاضطرابات على أثينة لأن كل أثينى كان فى قرارة نفسه فردى النزعة يحب الملكية الخاصة ؛ ولأن الحكومة الأثينية قد وجدت فى تنظيم الثروة والأعمال التجارية والصناعية تنظيماً معتدلا طريقة عملية وسطاً بين النزعتين : الاشتراكية والفردية . ولم تخش الحكومة الإقدام على هذا التنظيم ووضع القواعد والقيود ، فوضعت حداً أعلى لبائنات العرائس ؛ ونفقات الجنائز ، وملابس النساء(٦٥) . وفرضت الضرائب على التجارة وأخضعتها لإشرافها ، ووضعت أنظمة عادلة للمقاييس والموازين . ... الناس ... اعاة واجب الأمانة والشرف على قدر ما تستطيع الحكومات أن تحد من دناءة

Obeikandl.com

الطبيعة البشرية[٦٦] . وحددت الحكومة مقادير الصادرات ، وسنت قوانين صارمة للحد من جشع التجار والصناع ومعاقبتهم على ما يرتكبون ، وفرضت رقابة شديدة على تجارة الحبوب ؛ وأصدرت قوانين صارمة لمنع تخزين السلع والتحكم فى الأسواق ، فحرمت شراء أكثر من خمسة وعشرين بُشِلاً من القمح دفعة واحدة وأجازت الحكم بالإعدام على من يرتكب هـذه الجريمة . ومنعت إقراض المال على البضائع الخارجة من البلاد إلا إذا حملت السفن فى عودتها حبوباً إلى ثغر بيرية ؛ وأوجبت على السفن المملوكة لأهل أثينة والمشحونة بالحبوب أن تأتى بحمولتها إلى بيرية ؛ ومنعت تصدير أكثر من ثلث الحبوب التى تصل إلى هذا الثغر[٦٧] . وحرصت أثينة أشد الحرص على ألا ترتفع أثمان الخبز فوق طاقة المستهلكين ، وألا يثرى الناس إثراء فاحشاً من جراء جوع الشعب ، وألا يموت أحد من الأثينيين جوعاً ، وكانت وسيلتها إلى هذا الاحتفاظ برصيد كاف من الحبوب فى مخازن تملكها الدولة ، وإغراق السوق بهذه الحبوب المخزونة حين ترتفع الأثمان ارتفاعاً سريعاً[٦٨] . ووضعت الدولة قواعد تنظم بها الثروة عن طريق الضرائب والخدمات العامة ، وأقنعت الأغنياء أو ألزمتهم أن يتبرعوا بالمال إلى الأسطول وإلى دور التمثيل ، وأن يقدموا للدولة المال الذى تساعد به الفقراء من الوجهة النظرية على مشاهدة المسرحيات والألعاب . وفيما عدا هذا كانت أثينة تحمى حرية التجارة ، والملكية الفردية ، وفُرَص الكسب ، لاعتقادها أنها هى الأدوات الضرورية للحرية الإنسانية ، وأنها أقوى حافز على النشاط الصناعى والتجارى ، وأكبر عامل على ازدياد الرخاء .

وبفضل هذا النظام ذى النزعة الاقتصادية الفردية ، تخفف من حدتها

النظم الاشتراكية ، ازدادت الثروة فى أثينة وانتشرت فيها انتشاراً يحول بينها وبين الثورة المتطرفة ، وبذلك ظلت الملكية الفردية آمنة فى أثينة إلى آخر أيامها . وتضاعف فيها بين عامى ٤٨٠ و ٤٣١ عدد المواظفين ذوى الدخل الذى يمكنهم من العيش الرضى[٦٩] ؛ وزادت إيرادات الدولة ، وارتفعت نفقاتها ، ولكن خزانتها ظلت عامرة أكثر مما كانت فى أى عهد سابق من تاريخ اليونان ، ووضعت الدعامة الاقتصادية لحرية أثينة ، ونشاطها الصناعى والتجارى ، والفنى ، والفكرى ، واستطاعت أن تتحمل كل ما ساد العصر الذهبى من إسراف دون أن تنوء به إذا استثنينا من هذا التعميم الحرب التى خربت بلاد اليونان بقضها وقضيضها .

obeikandl.com